الجامعة الجزائرية
ووظيفتها البيداغوجية

الدكتور عبد الله بوخلخال

أستاذ محاضر بمعهد اللغة العربية وآدابها

جامعة قسنطينة

زرالدة في 28/01/1992م

الملتقى الوطني حول البيداغوجيا في الجامعة.

I- مقدمة

إن الجامعة الجزائرية تواجه أزمة حادة فعلا، في أداء وظيفتها البيداغوجية على أحسن وجه، نظرا للمسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقها، والتي تفرق طاقاتها المادية والبشرية.

- فهي تواجه أعدادا متزايدة من الطلاب سنة بعد أخرى.
- وتواجه ضعفا كبيرا في هياكل الأستقبال والوسائل البيداغوجية.
- وتواجه نقصا فادحا في هيئة التدريس ذات الخبرة العالية.
- وتواجه ضعفا شديدا في أساليب التسيير والتنظيم الإستغلال الأمثل لما هو موجود.
- وتواجه انفجارا ضخما في ميادين العلم والمعرفة عند غيرنا.
- وتواجه أخيرا تراثا متراكما في حاجة إلى نفض الغبار عليه وإحيائه و الإستفادة منه... الخ.

والتعليم الجامعي المعاصر يمثل رسالة جد خطيرة وهامة في المجتمعات المتطلعة إلى التقدم والتطور والنمو والإزدهار. وهذا لايتم إلا بالتحكم في العلم والتكنولوجيا وطرق أكتسابهما وتوصيلهما إلى طلاب جامعاتنا. والتعليم الجامعي في الجزائر بحكم رسالته، وبحكم الأعداد الغفيرة المقبلة عليه نتيجة لديمقراطية التعليم في الجزائر المعاصرة يعد العمود الفقري الذي تقوم عليه التنمية العلمية أو الثقافية أو الإجتماعية أو الإقتصادية.

II التعليم الجامعي هل هو خدمة أم استثمار:

إن النظرة الغالبة اليوم بين دول العالم تؤكد أن التعليم الجامعي هو خدمة واستثمار في الوقت ذاته واجب الأداء نحو كل فرد مواطن مؤهل لمتابعة تعليمة الجامعي، كحق من حقوقه على الدولة تطبيقا لمبدأ ديمقراطية التعليم.

وهو من ناحية أخرى إستثمار في أعز ما تستثمر فيه دولة مواردها وقدراتها البشرية، إن عظمة الدول المتطورة اليوم ترجع في المحل الأول إلى ثروتها البشرية المنتجة الخلاقة المبدعة في جميع ميادين العلم والمعرفة، الأدبية منها والعلمية النظرية منها والتطبيقية، وليس إلى مايوجد لديها من ثروات معدنية أو طبيعية.

والوقت يتساوى عند كافة الشعوب، وقد تتساوى بعض الشعوب في الإمكانيات المادية والمالية والبشرية، ولكنها تختلف في مقدار إستغلالها، لوقتها وإستفادتها من الإمكانيات المتوفرة لديها، بل نجد الكثير منهم يهدرون كثيرا من الوقت والجهد والإمكانيات فيما لايفيد.

هناك شعوب كثيرة عرفت طريقها إلى التقدم والرقي، وانتصرت إنتصارات كبيرة، بفضل تعليم أبنائها واعتباره استثمارا مؤكد النجاح مع تنمية ثقتهم في نفسهم وفي وطنهم وأمتهم.

III وظيفة الجامعة الجزائرية

تتمثل الوظيفة الأساسية للجامعة الجزائرية (1) فيما يأتي: إذ

"-تساهم في تعميم نشر المعارف واعدادها وتطويرها.

- تكون الإطارات اللازمة لتنمية البلاد وفقا للأهداف المحددة في التخطيط الوطني.

- تضطلع بترقية الثقافة الوطنية.

- تساهم في تطوير البحث وتنمية الروح العلمية.

- تتولى تلقين الطلاب مناهج البحث.

- تقوم بأي عمل لتحسين المستوى، وتجديد المعلومات والتكوين الدائم.

- تتولى نشر الدراسات ونتائج البحث".

إن هذا القانون الأساسي يحدد بوضوح مهمة الجامعة الجزائرية ووظيفتها الرئيسية خاصة، والتي تبدو لنا في ثلاثة محاور رئيسية هي:

أول: تقديم تعليم عال وتكوين متخصص ودائم للقوي البشرية اللأزمة للتنمية الوطنية في المهن والوظائف المختلفة، والتخصصات المطلوبة في جميع ميادين العلم والمعرفة.

ثانيا: ترقية الثقافة الوطنية والإنسانية والنشاط الفكرى بصفة عامة، بما تملكه الجامعة من رصيد ثقافي وعلمي وبيداغوجي، وبما تضمه من كفاءات، فهي مجتمع المثقفين والعلماء، وهي قبل غيرها معنية بهذا الميدان الخطير الذي تنعكس فيه الشخصية الوطنية للمجتمع الذي تعيش فيه وتزدهر، فهي القادرة على إحتواء التراث الوطني والقومي والعالمي، والعمل على إحيائه وترقيته للمساهمة في التنمية الوطنية والموارد البشرية.

ثالثا: تطوير البحث العلمي وتنميّته وخلق الروح العلمية لدى الطلاب والمدرسين على استواء، والعمل على إرساء قواعده واستمراريته، لكون البحث العلمي ضروريا لرفع مستوى هيئة التدريس في الجامعة بيداغوجيا وعلميا، ومستوى التحصيل العلمي عند الطلبة، ويتطلب من الجامعة أن تعمل على خلق توازن بين عملية التعليم من جهة والبحث العلمي من جهة أخرى.

وإذا لم تعمل الجامعة على تحقيق هذا الهدف، فما الفرق بينها وبين مؤسسات التعليم العام والمهني الأخرى؟

فإذا كان التعليم العام والمهني (وماقبل الجامعة) يهدف في المقام الأول إلى إكساب الطلبة عموميات الثقافية... وغيرها، فإذا التعليم الجامعي قديما وحديثا يهتم بخصوصيات الثقافة والعلم والمعرفة.

إن دور الجامعة أصلا يقوم على أساس تقديم تعليم عال وتكوين متخصص وتنمية الإتجاه الصحيح لدى هيئة التدريس أولا والطلاب ثانيا. وأن تعمل بإستمرار على تزويد مدرسيها بالمهارات البيداغوجية والمناهج العلمية الحديثة، والوسائل المتقدمة التي تمكنهم من أداء وظيفتهم على أحسن وجه، في تمكين الطلاب من التحصيل العلمي والمعرفة بأنفسهم تحقيقيًا للمثل القائل: "ولا تعطي المحتاج سمكة وإنما علمه كيف يصطاد السمكة".

ومن أجل تحقيق هذا الهدف يتطلب من هيئة التدريس بالجامعة أن تهتم بالتطور العلمي والبيداغوجي، وأن تعتبر هما جزءا لا يتجزأ من أنشطتها في مناخ ملائم يساعد على إنجاح العملية التعلمية.

VI وضعية تدريس اللغات والأداب في الجامعة الجزائرية

إذا عدنا إلى وضعية معاهد اللغات والأداب عامة ومعاهد اللغة العربية وآدابها خاصة، نجدها منذ نشأتها إلى يومنا هذا قد تجاوزت فعلا النظام التعليمي الموروث عن المرحلة الإستعمارية بفضل إصلاح التعليم العالي سنة 1971م، واندمجت في المنظومة الجامعية الجديدة، وتوسعت لتشمل مختلف المناطق من الوطن (الوسط، الشرق، الغرب، وحتى الجنوب) وخرجت عددا كبيرا من الدفعات التي غطت بالفعل الأحتياجات الوطنية في التعليم العام من حيث الكم، بالإضافة إلى وسائل الإعلام والمؤسسات الإجتماعية والثقافية والإدارت... الخ

ولكن هذه الميزة لاتعفينا من تقييم هذه المرحلة بشيء من الموضوعية بحيث ارتبطت بتكوين سريع غير مرض بيداغوجيا وعلميا، ولا يستجيب لمتطلبات المستوى العلمي الجامعي المطلوب في الجامعات العريقة للاسباب التالية:

- لقد تم إنشاء أغلب المعاهد دون مراعاة توفير الشروط الجامعية الأكاديمية الضرورية، بحيث لم تكن تتوفر على الخبرات العلمية، والوسائل البيداغوجية من ناحية، ولم تكن تستعين بخبرات أجنبية إلا نادرا. وقامت على كواهل المعيدين والمساعدين.

ومازالت هذه المعاهد حتى الأن تعاني نقصا فادحا في التأطير النوعي والتدريس والتجهيز، والتزوّد بالمصادر والمراجع العلمية الأساسية والمجلات والبحوث الجديدة في مجال تخصصها على الرغم من قدم بعضها منذ الستينات والسبعينات.

- ينظر إلى هذه المعاهد على أنها مدارس تخريج المدرسين لسد حاجيات التعليم العام، وإهمال البحث العلمي بها بل انعدامه في بعض الأوقات على الرغم من أرتباطه الحيوي برفع المستوى التعليمي والبيداغوجي عند الأساتذة والطلاب على السواء.

- معاملة العلوم الإنسانية، ومن بينها الدراسات اللغوية والأدبية مثلما تعامل المواد التعليمية الأخرى، وإهمال خصوصيتها وطبيعتها ودورها في تكوين "الانسان الجزائري" وهو المفهوم الذي يتجاوز مفهوم "الموظف التقني".

- تعامل السلطات الوصية التخصصات المختلفة الموجودة بالجامعة إنطلاقا من موقف المفاضلة فيما بينها، من حيث توفير القاعات والمخابر والوسائل والأمكانيات المالية والمادية... وغيرها، بحيث أعتبرت العلوم الأنسانية بصفة عامة واختصاص اللغة العربية وآدابها بصفة خاصة في أسفل درجات السلم التقييمي، واعتبرت لا أهمية لها في متطلبات التنمية الوطنية، وهذا ليس في الجامعة فقط، بل في مختلف مراحل التعليم، بينما ارتبط مفهوم التقدم ومواكبة العصر بالجوانب المادية في حياة المجتمع، بالتكنولوجيا خاصة، وأهملت الجوانب الثقافية والفكرية واللغوية والأدبية.

- عدم استقرار الخطة التعليمية والقرارات التي تنظم سير هذه المعاهد من حيث البرمجة وهيئة التدريس، ورسم الأهداف، وتحسين التكوين وطرق التقويم بحيث كثيرا ما كانت مرتبطة بالمراحل السياسية وتغير الوزراء والمسيرين، وتميزت بالتغيرات الإرتجالية وفي البرامج والقوانين، دون دراسة علمية معمقة، لوضع هذه المعاهد وأهميتها ومراعاة شروط تطويرها، بحيث لوحظ بشكل واضح هيمنة البيروقراطي (الإداري) على الجامعي العلمي والثقافي حتى في المستويات الدنيا.

وإلا كيف نفسر تخصيص مكاتب منفردة (ولا أقول فخمة ومكفية) لكتاب إداريين وضاربين على الألة الراقنة- مع إحترامي لهم- بينما لا يجد الأستاذ مكانا يستقبل فيه طلبته، ويعد فيه محاضراته وبحوثه.

- تغيب المعنيين مباشرة بالمهمة التعليمية والبيداغوجية في أغلب الأحيان عند وضع البرامج وتخطيط السير البيداغوجي لهذه المعاهد وأهمال خصوصياتها في تطوير المجتمع.

V- من أجل بيداغوجية متطورة في التعليم الجامعي.

إن الوظيفة البيداغوجية التي تقوم بها الجامعة حاليا تعرف كثيرا من الأختصار والأختزال في كل شيء ولا تتعدى هذه الوظيفة قاعات الدرس والمخابر، وربما بعض الأجتماعات، وأهملت بقية النشاطات الأخرى التي لها الأثر الكبير في شخصية ألأستاذ والطالب على السواء.

بل إن كثيرا من الأساتذة والطلبة لا يأتون إلى الجامعة إلا للدروس ولا يشاركون في الحياة الجامعية، ولا يستفيدون من الفرص والوقت والإمكاتيات المتوفرة حاليا بالجامعة على الأقل.

فالعلاقات الإجتماعية في الجامعة تكاد تكون منعدمة، فهناك، طلاب لا يحضرون إلى الجامعة إلا للتسجيل أو لتسوية الغياب بحضور الأعمال التطبيقية، أو للامتحان، وآخرون لا يعرفون حتى مجرد أسماء أساتذتهم، أين اللقاءات الفكرية والثقافية بين الأساتذة من جهة وبينهم وبين الطلبة من جهة أخرى؟!

بل حتى الوظيفة التعليمية أصبحت محدودة الفائدة جدا أصبح الطلبة كثيرا ما يتعقدون على مطبوعات مختصرة، أو إملاءات مركزة يحفظونها على ظهر القلب لإعادتها يوم الإمتحان كما هي، وقد يحدد بعض الأساتذة- تحت إلحاح الطلبة- موضوعات الإمتحان في بضعة أسئلة ويتركون بقية المقررات الدراسية دون العناية بها

وتكون النتيجة في النهاية أن يتخرج الطلبة من الجامعة بمعلومات مبتورة، ويضعون فرصة وجودهم بالجامعة للتعرف على المادة العلمية في تكاملها وترابطها المطلوب.

إن هذه المظاهر يجب أن تزول من الجامعة في وقت تحتاج فيه الجزائر إلى كل نبضة من نبضاتها وإلى كل ثانية من وقتها، ليساهم الجميع في حركة النهوض بالجامعة، والأستعداد العلمي والبيداغوجي للنهوض بهذه الرسالة.

إن العالم يتطور بسرعة فائقة، والأمور التي كانت حقائق في وقت من الأوقات أصبحت قديمة والمعارف الراهنة سوف تصبح قديمة في يوم من الأيام.

هنا يكمن دور البيداغوجية في الجامعة بإعتبارها العملية التي تحدث تغيرات مطردة في الأفراد والجماعات بواسطة التعليم والتعلم، فهي ذلك التفاعل بين المعلم والمتعلم، وعناصر البيئة الإجتماعية والمادية التي يعيشان في كنفها، وهي ذلك التكيف النفسي والإجتماعي والمهني في الجامعة.

وهي تلك الطرق والمناهج التي يتوصل بها المعلم والمتعلم على السواء إلى تنمية ثراهما الطبيعية والعقلية والأدبية والروحية، والتزود بالمهارات المختلفة لنفع نفسها ومجتمعها.

والبيداغوجية ليست تلقين معلومات، أو تعليم مقررات ومواد فحسب، وإنما هي عملية معقدة متكاملة وشاملة، تهدف إلى تكوين مجتمع جامعي متكامل، يمتاز بالتفاعل بين عنصرية أو قطبيه (المعلم والمتعلم) في الأخذ والعطاء، وتكوين عادات وإتجاهات وممارسات جامعية متواصلة عبر الأجيال، وذلك بتنميتها بإستمرار عقليا وجسميا ونفسيا وخلقيا وروحيا.

فالطالب يأتي إلى الجامعة برصيد من المعارف والأفكار المختلفة وقد تكون متناقضة، ويحمل معه كثيرا من الخبرات والمشاعر والعادات والسلوكات التي تكونت لديه على مدى عشرين سنة أو أكثر، حيث كان واقعا تحت تأثير كثير من العوامل والمؤثرات الأخرى، كجماعة الأسرة والنادي والحي والجيران والأصدقاء، والقرية، والجهة، والثقافة، واللغة، فضلا عن وقوعه تحت تأثير اتجاهات سياسية معينة ووسائل الإعلام والإتصال والثقافات المعنية.

بالإضافة إلى هذا أن الطالب لا يأتي إلى الجامعة عجينة لينة طيعة يمكن أن نشكل منها ما نشاء وكيفما نشاء، وإنما الطالب يأتي إلى الجامعة بشخصية تكاد تكون متكاملة، تأتي بميوله وأفكاره ومقوماته التي يدافع عنها، ويقاوم كل مساس بها أو مناقشتها سواء شعوريا أو لا شعوريا، خاصة في السنة الأولى على الرغم من أنبهاره بالتحاقه بالجامعة، أضف إلى ذلك أن الجامعة تقابل مجموعة كبيرة الطلاب الذين وإن تجانست شخصياتهم في بعض جوانبها وعناصرها كالسن مثلا، فإنهم يختلفون أختلافا شاسعا في الميول والإهتمامات والنزعات والفسفات والخلفيات الثقافية واللغوية والعلمية والأحكام المسبقة.

ثم أن الجامعة تستقبل مجتمعا طلابيا قريب الخروج من مرحلة المراهقة، ذات المشاكل الجسمية والنفسية والإجتماعية والإقتصادية، وقد تبدو على بعضهم مظاهر الشذوذ والأنحراف والأمراض النفسية والمغامرة، وتبدو على بعضهم الأخر مظاهر السكون والإنعزال والرفض وعدم الاندماج في المجتمع الجامعي وحتى في قاعة الدروس، ومعارضة كل ما يشكك فيما تعلموه في مراحل سابقة، نتيجة الثقافات الفرعية التي انحدروا منها والتي تؤثر في سلوكهم.

هنا تكمن صعوبة الجامعة في إحداث تغيرات إجابية في شخصية الطالب، و خلق مجتمع جامعي متجانس ومتكامل ومتفاعل بين عناصره وهنا تكمن الأهمية الكبرى للبيداغوجية ومسؤولية الأستاذ في التأثير على الطالب داخل الجامعة علميا وثقافيا وخلقيا وإجتماعيا.

وهنا يكمن دور الجامعة في:

- تنمية عقل الطالب وقدرته على التفكير السليم الصائب، والأستقراء العلمي، وتكوين القيم الخلقية والتعود على السلوك الجماعي وتنمية الإتجاه العلمي الصحيح بالتزود بالمهارات والمناهج العلمية التي تمكن الطالب من تحصيل العلم والمعرفة بنفسه معتمدا على مجهوداته الذاتية في أغلب الأوقات.

وبإعتبار أن الجامعة مؤسسة علمية وثقافية وإجتماعية قائدة فهي- بالفعل- تتأثر بما يحيط بها ويجب أن تؤثر فيه وتعيد تشكيله فهي من صنع المجتمع من ناحية، ولكنها أداته في صنع مستقبله وقياداته العلمية والتقنية والمهنية والفكرية والسياسية من ناحية أخرى.

فهناك كثير من المواهب تدخل الجامعة وتخرج منها دون التعرف عليها إلا بعد خروجهم من الجامعة وأغلبهم يضيع من زحمة المشاكل دون أن يلقي الرعاية الكافية والتشجيع.

VI دور معاهد اللغة العربية وآدابها في تشكيل الشخصية الحضارية للأزمة.

وعيا منا بالدور الخطير الذي يجب أن تلعبه معاهد اللغة العربية وآدابها في تشكل الشخصية الحضارية للشعب الجزائري والأعتناء بالتراث العلمي والثقافي والأدبي والحضاري وتنمية بإستمرار نرى ما يأتي:

- ضرورة تنظيم ملتقيات دورية حول البرامج وتطوير طرائق التدريس ومناهجيه، وتطور البحث العلمي بهذه وتشجيعه، توفير الوسائل الضرورية لذلك وهذا يتطلب:

1- قيام أهل الخبرة والتأهيل البيداغوجي والعلمي بمراجعة التجربة الجزائرية والتكنولوجيا والطرق البيداغوجية الحديثة، وضرورة تجاوز الطرق التعليمية التقليدية المطبقة حاليا، والتي تجنح إلى التعميم، والتأريخ، والتلقين، وتفتقر إلى الإنسجام، والعمق وتكوين الخبرة العلمية في التعامل مع مادة الدراسة، وتميل إلى تغليب النظري على التطبيقي، وإهمال العناية الكافية في التعامل مع النصوص وتطوير طرق معالجتها وفهمها وتحليلها وتذوقها.

3- رسم الأهداف العامة من التكوين بهذه المعاهد وتوضيحها وتحديدها حتى تتضح الرؤية لدى هيئتها التدريسية وطلابها.

4- إعادة النظر في قوانين التقييم الحالة الخاصة بالأمتحانات من حيث الكم والكيف، فيجب أن يتم تقيم الطالب على أساس مستمد من الفلسفة الرئيسية للنظام التعليمي المتبع، وعلى أساس مل ماقام به الطالب من أنشطة مختلفة خلال السنة الدراسية، بالتعرف على جوانب القوة فيه لتنميتها، وجوانب الضعف فيه لمساعدته على التغلب عليها.

ويكون التقيم مبنيا على عدة عناصر. المضمون والمنهج والفهم والقدرة على التحليل والنقد والمناقشة... الخ.

5- توفير الوسائل المادية والبيداغوجية لإنجاح العملية التعليمية في ظروف ملائمة، كالقاعات المناسبة والمخابر المجهزة، وأجهزة البحث والتصوير والنسخ والطبع... وإدخال نظام الإعلام الألي في التدريس، وتدريب الطلبة على إستعماله باللغة العربية بالإضافة الى تزويد مكتبات المعاهد بالمصادر والمراجع المتخصصة والمجلات والوثائق الضرورية، والعمل على إنشاء بنك المعلومات.

6- تطوير خدمات المكتبات المركزية ومكتبات المعاهد، وتزويدها بنظام الإعلام الألي والأشرطة العلمية واللغوية وأدوات البحث العلمي وتعزيزها بموظفين متخصيصين، وتغذيتها باستمرار فيما يجد في عالم العلم والمعرفة وفتحها أمام الباحثين والأساتذة والطلبة أطول وقت ممكن وفي جو ملائم.

7- التنسيق وتبادل الخبرات والدراسات التدريبية في الداخل والخارج وفق أهداف بيداغوجية وعلمية مضبوطة ومبرمجة مسبقا.

8- رفع القيود على سياسة التكوين والتفرغ في الداخل والخارج، وتنظيمها ومعاملة جميع الإختصاصات على قدم المساواة، والتخلي على سياسة المفاضلة بين الإختصاصات الجامعية، وتدعيم العلوم والتكنولوجية على حساب الأداب والعلوم الإنسانية!

9- تجشيع الأساتذة والباحثين على التأليف أو الجماعي مع تحمل الجامعة مسؤولية الطبع والنشر والتوزيع.

10- تشجيع الأساتذة على ترجمة بحوثهم الجامعية (الرسائل) المنجزة في الجامعات الأجنبية. وكذلك البحوث العلمية الحديثة المنشورة بلغات أخرى- غير العربية وخاصة التي تحمل رأيا جديدا أو إكتشافا مبتكرا أو طرائق مفيدة.

11- خلق التوازن بين وظيفة التدريس العلمي، لكون هذا الأخير ضروريا لرفع مستوى التدريس بالجامعة، حتى يصبح البحث العلمي وظيفة لكل عضو من هيئة التدريس بهذه المعاهد.